رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

ربيع الأول ١٣٧٨ هـ — السنة العاشرة
أكتوبر ١٩٥٨ م — العدد الرابع

مِنْ زَلاّتِ ٱلمُسْتَشرِقِين

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

من زلات المستشرقين المتكررة ، وهفواتهم الشائعة ، تصيدهم للروايات الضعيفة يروجونها، وللكتب التى ليست بذات ثقة في نقلها يعتمدون عليها وينقاون منها ، ثم يبنون على ذلك أحكامهم ، ويؤكدون استنباطاتهم .

ونحن لو أحسنا النية بهم لقلنا إن ذلك من ضيق فى الاطلاع ، وتقصير فى الإحاطة والدرس ، وعدم تدقيق فى منهج البحث . ولو أسأنا النية بهم لقلنا إن ذلك عن غرض وهوى ، ومقصد مرصود ، ونية مبيتة ، وخروج عن المنهج السليم .

وسنكون فى هذا البحث مع الأستاذ (الفريد جيوم) وهو أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن ، وله شهرة فى العالم الإسلامى ذائعة مستفيضة . وقد كان هو المشرف على تحرير كتاب « تراث الإسلام » الذى ترجم إلى عدة لغات .

فتاريخ هذا المستشرق حافل بالدراسات الإسلامية والعربية ، لذلك سنتناول كتابه « الإسلام » بالنقد لبعض فصوله ، والذى حملنا على ذلك شهرة الأستاذ العلمية ومعاصرته ، ثم إن هذا الكتاب كان منذ أربع سنوات مقرراً على طلبة ليسانس الآداب قسم اللغة العربية .

جاء فى ص ٨ من الفصل الذى عنوانه « التمهيل التاريخى » : (كانت « العزى » أهم الآلهة عند أهل مكة ، وهناك دلائل كثيرة تبين أنها كانت معبودة منذ القرن الرابع بعد الميلاد ، وتقول الروايات : « إن محمداً فى شبابه كان يقدم القرابين لها ») .

وهذه الرواية منقولة عن كتاب « الأصنام » لابن الكلبى حيث ذكر : « كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ، ويتقربون

عندها بالذبح ، وقد بلغنا أن رسول الله ذكرها يوماً فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومى » .

أرأيت إلى الطعن الصريح فى رسول الله من غير سند ولا نقل موثوق به ، أفما كان الأجدر بهذا الكاتب أن يبحث عن مبلغ الثقة بهذا الرواية ، وما رأى النقاد فيه ، وإذا أراد أن يعرف حكم النقد على هذا الرواية فليسمع :

إن علماء الحديث ونقاد الآثار والأخبار لا يرضون عن ابن الكلبى ولا عمن نحا نحوه من التاريخيين والأخباريين ، لا لشىء سوى أنهم تعرضوا لرواية الآثار دون أن تتوافر فيهم الشروط اللازمة فيمن يتصدر لهذا الضرب من النقل . فهؤلاء العلماء يجرحون أمثال ابن الكلبى ويحطون من أقدارهم ، لأنهم أقدموا على تدوين الآثار ممزوجة ببعض الأساطير والأقاصيص .

قال السمعانى فى كتاب « الأنساب » حين الحديث عن ابن الكلبى :

إنه يروى الغرائب والعجائب والأخبار التى لا أصول لها ، ويسبق السمعانى الإمام أحمد بن حنبل فإنه كان يكرهه ، وقد قال فى حقه : « من يحدّث عن هشام ؟ إنما هو صاحب سَمَر ونسَب ما ظننت أحداً يحدث عنه .

ونص الذهبى فى « طبقات الحفاظ » وكذا صاحب « شذرات الذهب » على أنه متروك الحديث .

ألا ترى إلى صاحب كتاب « الأغانى » وهو أبو الفرج الأصفهانى أنه ذكر فى كتابه (١٦١ / ١٨) عن بعض أخباره التى رواها :

« وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبى والتوليد فيه بين » .

وفى (١٩ / ٩) عن أخبار أخرى رواها ابن الكلبى :

« هذه الأخبار التى ذكرتها عن ابن الكلبى موضوعة كلها ، والتوليد بين فيها وفى أشعاره ، وما رأيت شيئا منها فى ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات ، وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه ما لحق دريد من الهجنة والفضيحة

فى أصحابه ، وقتل من قتل معه ، وانصرافه منفرداً ، وهذا من أكاذيب ابن الكلبى ، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شىء قد رواه الناس وتداولوه » .

فأنت ترى أن أبا الفرج إذن يجمع كل ماقيل ، فهو يجمع الصادق وغير الصادق ، لأنه لا يريد أن يخلو كتابه من شىء يعرفه الناس ، ولو كان هذا الذى يعرفونه من المصنوعات والأكاذيب ، وتلك ظاهرة من الظواهر التى تلازم الرواة كابن الكلبى .

وقد كرر الأستاذ جيوم هذه الفرية فى (ص٢٦) من كتابه المذكور حيث قال :

« والقصة الوحيدة الحقيقية عن السنوات الأولى للرسول موجودة فى مخطوط لم ينشر حتى الآن لأول مؤرخ لحياة الرسول وهو ابن إسحق ، وهذا نصها :

أخبرت أن رسول الله قال : حينما كان يتحدث عن زيد بد عمرو بن نفيل : إنه أول من لا منى على الوثنية ، ونهانى عن عبادة الأصنام ، وكنت قد قدمت من الطائف » إلى أن قال : « ثم لامنى على عبادة الأوثان ، وبعد ذلك لم أقرب صنما من أصنامهم ، أو أقدم له قربانا ، إلى أن شرفنى الله برسالته » فما مبلغ هذا الحرص من المستشرقين على أن يبعثوا الريبة فى محمد صلوات الله عليه بإخبارهم أنه كان يعبد الأصنام ويقرب القرابين إليها ، ولو كان هذا الخبر من غير سند أو تحقيق .

ولنذكر للأستاذ (جيوم) رواية لراو هو ينقل عنه كثيرا - وإن كان لنا رأى فيما يروى هذا الراوية - وهو ابن سعد فى كتابه « الطبقات » ص ١٣٩ ج ١ :

« عن عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كانت بُوانة صنما تحضره قريش تعظمه تنسك له النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل ، وذلك يوماً فى السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ، ولا تكثر لهم جمعا . قالت أم أيمن : فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ » .

وفى قصة (بحيرا) الراهب التى يسلم بها (جيوم) أن (بحيرا) قام إليه فقال ياغلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما » . هذا ما ذكره ابن سعد فى ص ١٣٦ ج ١ .

وذكر فى موطن آخر فى ص ١٣٨ ج ١ :

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضر سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها ، واشترى غيرها ، فكان بينه وبين رجل اختلاف فى شىء ، فقال له الرجل : احلف باللات والعزى ، فقال رسول الله : « ما حلفت بهما قط وإنى لأقر فأعرض عنهما » قال الرجل : القول قولك .

وقبل أن نمضى فى نقد الأستاذ (جيوم) نرى من الانصاف أن نسجل له حسنة من حسناته ، كما تحدثنا عن سيئاته ، فإن النقد البرىء هو النقد الذى يكشف عن المحاسن ، كما يكشف عن المساوىء . فقد دافع بحرارة عن تهمة طالما لصقها المستشرقون بمحمد صلوات الله عليه ، وهى رميه ـ وحاشاه ـ بالصرع فى حال نزول الوحى ، بل أعلنوا أنها حالة مرضية .

ويقول (جيوم) فى ص ٢٥ :

وقد ذهب جيل من المستشرقين فى الماضى استناداً على الروايات التى تصنف ما كان يعرض لمحمد من الجهد والتعب الذى كان يصاحب نزول الوحى ، ذهبوا إلى أن الرسول كان مصاباً بمرض الصرع ، وهذه التهمة كان قد ألصقها به من قبل كاتب بيزنطى ، ومثل هذا الغرض لا أساس له قط ، ونستطيع أن نعزوه ـ ونحن آمنون ـ إلى التحيز ضد النبى ، فإن دراسة هذه الظواهر النفسية لمثل هذه التجربة الدينية تجعل هذا الافتراض بعيد الاحتمال جداً ، نعم أن الأنبياء ليسوا أناساً عاديين ، ولكن هذا لا يتيح لنا أن نقول : أن سلوكهم هذا غير العادى مرده إلى حالة مرضية . وفوق ذلك كله فإن محمداً كان رجلا لم يخنه إدراكه السليم قط ، أما أولئك الذين ينكرون عليه اتزانه العقلى والنفسى ، فهم إنما يتجاهلون الشواهد

القاطعة الدالة على نفاذ بصيرته فى الناس ، وتقديره المحكم لما يجرى فى العالم خلال العصر الذى عاش فيه ، كما يتجاهلون ثباته فى وجه المعارضة المستمرة ، حتى انه استطاع أن يجمع العرب على دين الإسلام . وقد يكون لهذه التهمة سند لو أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم انهار فى ساحة المعركة أو أثناء جدال معارضيه ، أو لو أنه كان يصاب بالإغماء حين تتأزم الأمور ، إلا أن الشواهد التى لدينا تثبت عكس ذلك تماما ، فافتراض وجود مرض الصرع ليس له أى أساس - فى نظرى - فضلا عن أنه يسىء إلى جميع المسلمين » .

ويقول مستشرق آخر من أشد المتعصبين على محمد فى كتاب له « الرسول » يذكر فى ص ٥٥ رداً لتهمة الصرع أيضاً :

« أن الأكثرية تجزم بأن محمداً كان مصاباً بالصرع ، ولكن يؤكد كل طبيب أن المصاب بالصرع لا يفيق منه ، وقد ذخر عقله بأفكار لامعة ، ولا أن يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد حتى قبل مماته بأسبوع واحد ، فما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجحانه فهو محمد ؟

الفتح الربانى

لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى

أهدى إلينا الباحث الجليل الأستاذ العلامة الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا نسخة من كتابه الذى رتب فيه مسند الإمام أحمد رضى الله عنه ، وشرحه شرحا مقربا مهذبا ، ومن مميزات هذا الكتاب الجديد : أنه رتب على أبواب الفقه بعد أن كان مرتباً حسب المسانيد ، وأن سنده اختصر فى الأصل ، وأثبت فى الشرح ، وهو يقع فى أربعة وعشرين جزءا ، طبع منها إلى الآن اثنان وعشرون ، فنشكر السيد الأستاذ الجليل ، ونسأل الله تعالى أن يمتعه بالعافية ويمد فى عمره المبارك .